جامعة محمد بوضياف

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم الفلسفة

مقياس : منهجية البحث الفلسفي **السنة الثانية**

السداسي الرابع **د : بوزبرة عبد السلام**

المحاضرة الحادية عشر :11

من ضرورة المنهج إلى ضد المنهج"بول فيراند"

تعد ضرورة تحديد منهج البحث والممارسة العلمية والفلسفية المبدأ الأساس الذي قامت عليها تصورات الفلاسفة والميتودولوجيين من "أرسطو" إلى "كارل بوبر" ومرورا ب "فرانسيس بيكون" و"ميل" "وديكارت"، الى فلاسفة التحليل المعاصر، فقد جعل "أرسطو" من القياس، المنهج الوحيد والضروري لقيام العلم، وألح "ديكارت" على أن البحث في المنهج يعد من أهم المشكلات، وأولاها عناية في مهمة الفيلسوف، فالشعور بضرورة المنهج هو أول ما يلزم من أدوات التفلسف، طبقا لمقولته:"خير لنا ألا نفكر، من أن نفكر بدون منهج"، واعتبر "الاستقراء" عند "التجريبية المنطقية" الطريقة الوحيدة واللازمة لتخليص العلم من الميتافيزيقا، وجعل "كارل بوبر" من قواعد التكذيب شرطا لازما لتمييز العلم عن اللاعلم، وجعل فلاسفة التحليل المعاصر من التحليل المنطقي المنهج الوحيد لقيام فلسفة علمية، لكن التحولات التي عرفها الفكر العلمي والفلسفي المعاصر أدى إلى إعادة النظر في هذا المفهوم العقلاني الصارم للمنهج ، الذي لم يعد صالحا لفهم التاريخ المعقد للعلم والمعرفة والتنوع الإنساني، بل أن أكثر العقبات الابستيمولوجية التي تقف أمام تقدم الفكر هي في حقيقة الأمر هي عقبات منهجية، وتجاوزها إنما يعني رفض هذه المنهجية وابتـكار وسائل جديدة تمكننا من تجاوز تلك العقبات ، وهذا ما جعل الكثير من الميتودولوجين وفلاسفة العلم المعاصرين يدعون إلى تجاوز فكرة المنهج الواحد، والدعوة إلى التعددية المنهجية، فليست هناك طريقة محددة للابتكار والكشف العلمي في أي مجال من مجالات المعرفة البشرية.

يقول "كلود برنار" (1813 ـ 1878) عندما أراد فلاسفة من أمثال "بيكون"، أو غيره ممن هم أقرب إلينا أن يرتبوا في نظام شامل قواعد للبحث العلمي فإنهم استطاعوا أن يعجبوا أناسا لا ينظرون إلى العلم إلا من بعيد، لكن مثل هذه الأعمال لا يجد فيها العلماء الناضجون فائدة، فإنها تضللهم بتبسيطها الخادع للأمور، بالإضافة إلى أنها تعوق نشاط أذهانهم بإثقالها بجملة من القواعد المبهمة أو غير القابلة للتطبيق التي يجب المسارعة إلى نسيانها إذا ما أراد الإنسان أن يدخل باب العلم وان يصبح مجربا حقيقيا . كما رفض "باشلار" (1884-1962) وجود منهج علمي واحد صالح لكل بحث علمي ولكل معرفة، فكل تقدم في الفكر العلمي، وكل تجربة جديدة كفيلة بأن تغير الفكر العلمي برمته، لا المناهج فحسب، فلكل علم منهجه الخاص، ومفاهيمه الخاصة التي تتلاءم والمرحلة التي هو عليها هذا العلم أو ذاك، وكل خطاب حول المنهج العلمي سيكون دائما خطابا سياقيا، ولن يتصف بالبنية النهائية"، بل إن العلم حين يغير من مناهجه يصبح أكثر منهجية.

ويرى "مايكل بولاني": (1891-1976 .(33)" أن التقيد بمنهج واحد، ووحيد من مناهج العلم، يؤدي إلى الحد من النشاط الديناميكي للمعرفة الإنسانية، فلا وجود حسب "بولاني" لإطار معرفي واحد يمكن وصفه بأنه عقلاني وموضوعي، فلكل عالم وجهة نظره الخاصة وتطلعاته المعرفية، وخلفيته المعرفية والإيديولوجية ،ومن ثم فالإبداع لا يأتي حسب "بولاني"عن طريق اتباع منهج محدد ثابت، ولا من الخبرة المباشرة للواقع التجريبي، بل من خلال المشاعر والأحاسيس والتخمينات والحدوس والخيال والتعهدات الإنسانية، وهو ما يعرف عند "بولاني" بمصطلح: " المعرفة الكامنة"

كما رفض "توماس كون" (1922-1996) وجود قواعد ومعايير (عقلانية) خارجية تحدد الممارسة أو البحث العلمي، باعتبار أن هذه القواعد تخضع للتطور والنقد أو الفحص عن طريق الممارسة والبحث ذاته، فالعلماء والباحثين في لحظة البحث والإبداع والكشف العلمي لا يصغون إلا لصوت النتائج والحقائق التي توصلوا إليها، بغض النظر عن المنهج الذي اتبعوه بل مهمة فلسفة العلم هي البحث في الأسس الفلسفية والأبعاد النفسية والسوسيولوجية التي بني عليها الكشف والتقدم العلمي بشكله الواقعي كما مارسه العلماء من خلال تاريخ البحث العلمي ذاته لا عن طريق وصف المناهج والطرق التي لم يلتزم بها العلماء أصلا، فلا وجود لمنهج علمي شامل وكامل يستطيع أن يفسر حركية تطور العلم، فكثير من التحولات العلمية حصلت دون إتباع منهج بعينه.

ولم تقتصر أزمة المنهج على العلوم الطبيعية بل امتدت الى مجال العلوم الإنسانية، إذ يرى "غادامار"" أن المنهج لا ينتج في النّهاية إلا ما يبحث عنه أو لا يجيب إلا على الأسئلة التي يطرحها، إنّ أي منهج يتضمن إجاباته ولا يوصلنا إلى شيء جديد"، فالحقيقة (في العلوم الإنسانيّة) ليست بنت المنهج؛ أو هي على الأقل، ليست حكراً على التّعامل المنهجي مع العالم، بل هي نتيجة الخبرة المباشرة بالعالم، أو الانفتاح على العالم عبر الفهم.

فالمنهج حسب "غادامر" لا يعد الطريق الوحيد لبلوغ الحقيقة في العلوم الإنسانية أو التاريخية، وتكفي العودة إلى كتاب غادامر "الحقيقة والمنهج" لمعرفة دعوته الى تجاوز الطابع المنهجيّ للحقيقة في العلوم الإنسانية، بل إن عنوان الكتاب نفسه قد يشكل عتبة أولية للقراءة تسهم منذ البداية في فضح تصورات "غادامير" حول فكرة المنهج، إذ أن كلمة المنهج المعطوفة على كلمة الحقيقة في العنوان، تضعنا منذ البداية أمام تساؤل حول ماهية العلاقة بينهما، لذلك يذهب بعض الباحثين إلى اعتبار أنّه كان من الأنسب لـ غادامير أن يطلق على كتابه عنوان "الحقيقة واللامنهج"، في حين يذهب البعض الأخر إلى أن العنوان نفسه ينطوي على تهكم، فالمنهج ليس الطريق إلى الحقيقة. بل على العكس، الحقيقة تتملص من الإنسان المنهجي وتفلت منه. ويعد فيلسوف العلم المعاصر"بول فيراند" من أشهر فلاسفة العلم مناهضة للمنهج، وهذا ما سنتناوله بشيء من التفصيل في ما يلي .

من المنهج الى" ضد المنهج.

يعد موقف فيلسوف العلم المعاصر "بول فيراند" (1924 ـ 1994) Paul Feyrabend من المنهج من المواقف الأكثر جرأة وتميزا في فلسفة العلم المعاصرة، ويكمن هذا التميز في أن "فيرابند"قد نقل مجال البحث، من التساؤل عن المنهج الأكثر فعالية، والأكثر دقة وموضوعية، إلى التساؤل عما إذا كان هنالك حقا منهجا كليا، ثابتا، يتوجب إتباعه، والالتزام بقواعده لفهم ودراسة هذا الواقع العلمي المعقد. ليس ثمة ــ حسب"فيرابند" ــ "منهج علمي، ولا توجد مجموعة من الإجراءات أو مجموعة من القواعد تشكل أساسا لكل نموذج بحث علمي وضمانا له، فعلى الرغم من وجود أنماط للنجاح في العلوم،إلا أنه ليس هناك منهج ثابت، ولا يمكن أن يكون ثمة منهج كلي، فالانجازات التي تمت في مجال العلوم لا يمكن أن تعزى لوجود مبادئ عامة، تغطي كل المجالات، فلا توجد حقيقة كلية، ولا معايير محددة للمعرفة والعقل، وحتى وإن كانت المعايير والقواعد الميتودولوجية مطلوبة من أجل السير العقلاني والمنطقي للبحث (و خاصة البحث العلمي) فانه يتوجب ألا نجعل من تلك المعايير والقواعد، المعايير الثابتة والوحيدة، لأن ذلك سيكبح مسيرة العلم، خاصة إذا كانت تلك القواعد والمعايير تعبر عن تصورات مذهبية.

كما أن الالتزام الصارم بقواعد المنهج، يؤدي إلى خنق القدرات العقلية، وكبح قوة الخيال،والحد من القدرات الإبداعية، يقول فييرابند: " فالفكرة القائلة بأن العلم يمكن له، وينبغي له أن ينتظم وفق ا لقواعد ثابتة وكلية، هي فكرة مثالية وذات بريق خادع، فهي مثالية لأنها تتضمن تصورا مفرطا في البساطة حول ما يملكه الإنسان من استعدادات وقدرات، وحول الظروف التي تشجعها على النمو، وهي براقة خادعة من حيث أن محاولة فرض مثل هذه القواعد لا تخلو من جعل الزيادة في كفاءتنا المهنية لا يكون إلا على حساب إنسانيتنا، فضلا

عن أن هذه الفكرةمضرة بالعلم، لأنها تهمل الشروط الفيزيائية والتاريخية المعقدة التي تؤثر في عملية التحول العلمي، إنها تجعل مشروعنا العلمي أقل مرونة، وأكثر دوغماتية" إن فكرة الالتزام بقواعد المنهج التي ميزت معظم الميتودولوجيات في فلسفة العلم الكلاسيكية والمعاصرة تقوم حسب "فيرابند" على مسلمة خاطئة، وهي الاعتقاد بوجود منهج وحيد ينبغي الالتزام به في الممارسة العلمية، وأن هذا المنهج هو السبيل الوحيد لتحصيل المعرفة واكتشاف الحقيقة.

ويستند "فيرابند" إلى تاريخ العلم للبرهنة على بطلان هذا الاعتقاد حيث يقول: " إن فكرة وجود منهج ينطوي على مبادئ صارمة وثابتة تحكم مسيرة العلم، تواجهها صعوبات جمة عند مجابهتها بنتائج البحث التاريخي، إذ أنه ليس ثمة قاعدة واحدة مهما كانت مؤسسة وراسخة في حقل الابستومولوجيا، لم يتم انتهاكها ولو لمرة واحدة، وهذه الانتهاكات لقواعد المنهج، ليس حوادث عرضة، وليست ناتجة عن نقص في معارفنا، أو عن عدم وعي يمكن تداركه، بل هي على العكس ضرورية للتقدم العلمي. إن الأحداث الهامة والتطورات العلمية الكبرى، كبداية المذهب الذري القديم، انتقالا إلى الثورة الكوبرنيكية، وظهور المذهب الذري الحديث، والنشوء المتدرج للميكانيكا الموجية للضوء، لم تكن لترى النور لولا أن بعض العلماء والمفكرين، قد قرروا أن لا يلتزموا بقواعد محددة وثابتة، أو لأنهم اخترقوها أو تخطوها عن غير قصد. " كما أن تاريخ العلم، وتاريخ المنهج ذاته يكشف لنا عن عدم وجود منهج محدد لتحصيل المعرفة واكتشاف الحقيقة، فقد كانت المعرفة مؤسسة على التأمل والمنطق، ثم أدخل "أرسطو" إجراء تجريبيا أكثر تطورا، بيد أن "ديكارت"، و"غاليلي" استبدلاه بمناهج ذات طابع رياضي، ثم انصهر كله في نزعة تجريبية متطرفة، غير أن هذه الإعاقات والانتهاكات لهذه المناهج، لا ينبغي أن تؤخذ كباعث على استبعادها ، فكل هذه المناهج ضرورية لتطور العلم.

إن هذه الممارسة الحرة أو عملية تجاوز المنهج القائم ليست فقط مجرد واقعة أثبتها تاريخ العلم، ولكنها ضرورية لنمو المعرفة وتقدم العلم، وذلك لأن سيطرة المنهج الواحد من شأنه أن يؤدي حسب "فيرابند" إلى تقليص مساحة العلم، ويحرمنا من نظريات كثيرة قد يحالفها الصواب في توسيع معارفنا، فليست هناك مناهج أو قواعد ثابتة صالحة صلاحية شاملة للممارسة والبحث العلمي، يقول "فيرابند" : " إن فكرة منهج كلي راسخ والتي تعد مقياسا ثابتا للوفاء بالمراد، بل وحتى الفكرة التي تقول بعقلانية كلية راسخة، إنما هي فكرة غير واقعية مثلها في ذلك مثل الفكرة التي تقول بأداة قياس راسخة يمكنها أن تقيس أي كتلة من دون أي اعتبار للظروف المحيطة بها، إن العلماء كثيرا ما يعدلون معاييرهم وإجراءاتهم، ومقاييس العقلانية عندهم، لأنهم يتحركون إلى الأمام، ويدخلون مجالات بحث جديدة." وعلى هذا الأساس يعارض "فيرابند" كل الميتودولوجيات التي التي تفترض وجود معايير وقواعد ثابتة كلية، ولا تاريخية، ولا يجب أن نفهم من دعوة "فيرابند" إلى "ضد المنهج"، أو "اللامنهج "أن البحث العلمي يسير خبط عشواء، ودون أية قواعد أو إجراءات عملية، أو أنه بنفي المنهج مطلقا،

وإنما يعني "اللامنهج": لا يوجد منهج علمي محدد، كلي ولا تاريخي، وليست هناك مبادئ وقواعد أو شروط مسبقة ثابتة ونهائية تحدد منهج العلم ومسيرته، فاللامنهج هو إجراء فوضوي، في مقابل الالتزام المتزمت بالقواعد والمعايير العقلانية، والغرض منه تحرير العلم من سلطة المنهج ،كما أن " اللامنهج "يعني عدم فرض منهج معين، أو طريقة بحث معينة، ثم العمل على قولبة موضوع الدراسة أو البحث داخل ذلك الإطار المنهجي، لأن ذلك لا يناسب الوضع الحقيقي للعلم فقواعد وإجراءات البحث العلمي تتحدد بظروف وأهلية البحث ذاته ومعايير الحكم عليها، وتعديلها أو تغييرها لابد أن تكون متكيفة مع العمليات والمواضيع التي يبحث فيها، فالعلم ما هو إلا محصلة لعملية البحث وليس لإتباع قواعد معينة، ومن هنا فان "فيرابند" لا يرفض كل الميتودلوجيات السائدة بل يرفض طابعها الإيديولوجي المتمثل في النزعة الكلية واللاتاريخية التي تتصف بها. ويستدل"فيرابند" على رفضه للمنهج الواحد القائم على قواعد ومعايير ثابتة بأن العلم ظاهرة معقدة وليس نسقا بسيطا منظما، "فكل وضعية علمية واقعية، هي وضعية معقدة، تنمو بكيفية غير قابلة للتوقع ولذلك فانه من العبث أن نتمنى العثور على المنهج الذي يمكن العالم إتباعه.

كما أن العلم ليس نشاطا عقلانيا خالصا، تحكمه مجموعة من القواعد الميتودولوجية والمنطقية، فقد أثبت تاريخ العلم أن العوامل اللاعقلانية، كالخيال، والحدس، والعاطفة، والأسطورة، لها دور كبير في تطوره، كما أن العلماء لم يتقيدوا دائما بهذه القواعد المنطقية والمنهجية، ويعد "غاليلي"، أهم مثال في تاريخ العلم يسترشد به "فيرابند" لإثبات فكرة أهمية التحرر من القيود والمناهج التقليدية، والرأي الشائع والأفكار السائدة وتبني الفروض المعاكسة، وذلك من خلال محاولة "غاليلي" الدفاع عن النسق "الكوبرنيكي" المتعارض مع النسق الأرسطي السائد آنذاك، فعندما أعاد "كوبرنيك" إحياء الفكرة الفيتاغورية عن حركة الأرض، اعترضتها صعوبات تتجاوز تلك التي اعترضت "النسق البطليمي ."وقد دعم "غاليلي" حججه في الدفاع عن حركة الأرض، " بالاستناد إلى وسائل لاعقلانية كالدعاية والحيّل النفسية، وأساليبه وتقنياته البارعة في إقناع خصومه، لأنه يكتب باللغة الايطالية بدل اللاتينية، واستنجاده بأشخاص يعارضون الأفكار القديمة ومبادئ التعلم وقواعد المعرفة المرتبطة بها. "

إن دفاع "غاليلي" عن الكوبرنيكية لم يقم حسب "فيرابند" على أسس عقلية ومنطقية، بل تدخلت في ذلك اعتبارات لاعقلانية، ومن دونها ما كان للثورة الكوبرنيكية أن تحدث هذا التقدم في العلم، ذلك لأن تقبل الأفكار الجديدة، والنظريات التي تتعارض مع الواقع المألوف، عادة ما يكون عن طريق وسائل غير عقلانية كالدعاية والعواطف والنظريات الخاصة، وتحتاج هذه الوسائل غير العقلانية إلى التمسك بها والإيمان بها حتى تظهر العلوم المساعدة والحقائق، والمناقشات التي تحول هذا الإيمان إلى معرفة صلبة . ولكن إذا كان "فيرابند" يعارض مشروع العقلانية القائم على المنهج الواحد الثابت، فما هو البديل الذي يقدمه في مقابل المنهج العلمي بالمعنى

السابق؟ وهل يطرح "فيرابند" منهجا مغايرا ؟ إن الاجابة عن هذا السؤال تكمن في ما يعرف عند "فيرابند"بالتعددية المنهجية.

من وحدة المنهج إلى التعددية المنهجية:

إن رفض "فيرابند" لوجود منهج علمي كلي ولا تاريخي، ورفضه للعقلانية العلمية القائمة على القواعد والمعايير الثابتة، ونقده لكل الميتودولوجيات المعيارية، لا يعني وقوعه في دوغماتية بديلة،من اجل استبدال قواعد ومناهج بأخرى، بل هي دعوة إلى الاعتراف بأن كل المناهج، وكل الأفكار مقبولة،وهي دعوة ضد التنميط والأحادية، ويتجلى ذالك في قوله: »ليست لدي نية في استبدال مجموعة قواعد عامة بأخرى، بل مقصدي هو إقناع القارئ، بأن كل الميتودولوجيات حتى أكثرها وضوحا وبداهة لها حدودها، وأفضل طريقة لإثبات ذلك هي بيان حدود ـ بل لا عقلانية ـ بعض القواعد التي لديها الحظ في أن تعتبر من قبل البعض أساسية ." وعلى هذا الأساس يدعو "فيرابند" إلى التعددية المنهجية، التي يعتبرها السبيل الأمثل لتحقيق التقدم في العلم والمعرفة، ذلك لأن وحدة الرأي، ووحدة المنهج تؤدي إلى كبح الخيال وإعاقة العلم، والحد من القدرات الإبداعية للإنسان، كما أن وحدة الرأي كما يقول"فيرابند" قد تكون مناسبة للكنيسة والضعفاء والراغبين في إتباع أحد المستبدين أو الطغاة، لكن تنوع الآراء ضروري للمعرفة الموضوعية، والمنهج الذي يشجع التنوع هو المنهج الوحيد الذي يتناسب مع النظرة الإنسانية.

إن التعددية المنهجية التي يدعو إليها "فيرابند" تعددية تؤمن بوجهات النظر المختلفة، وبالبدائل النظرية المتعددة وكل الأفكار والفروض والنظريات، حتى تلك التي تم نبذها في الماضي عن طريق منافسيها، لأنها قد تفيدنا في توسيع نطاق معارفنا إن دعوة "فيرابند" إلى التعددية المنهجية، ورفض المنهج الواحد، وإن كانت تتفق في بعض أوجهها مع وجهة نظر بعض فلاسفة العلم المعاصرين، إلا أن أطروحة "فيرابند" حول المنهج والتعددية المنهجية تختلف عن هذه المواقف، ذلك إن السؤال عن المنهج عند "فييرابند"ـ مبدئيا ـ هو سؤال زائف، فليس للعلم منهج معين يمكن تحديده مسبقا والبحث في المنهج عبث لا طائل من ورائه، ومن زاوية أخرى ، فان رفض "فيرابند" للمنهج الواحد وتبنيه للتعددية المنهجية والنظرية، كان الغرض منه تخليص العلم من كافةالقيود والمعوقات التي كبلته بها الميتودولوجيات المعيارية من جهة، والرغبة في أنسنة ظاهرة العلم من جهة أخرى " فالتعددية ليست مهمة للميتودولوجيا فقط بل أيضا تشكل جزءا أساسيا للنظرة الإنسانية ." إن العلم في تصور فييرابند ليس شبكة من المعادلات الرياضية والعلاقات المنطقية ، بل نشاط إنساني متدفق تشارك فيه كل الفاعليات الإنسانية، العقلية واللاعقلية، ومن ثمة فالمناهج اللاعقلية يمكنها أن تفيد العلم كالمناهج العقلية تماما، فالعقل والمنهج العقلاني هو أحد أوجه تلك النظرة الإنسانية لا وجهها الوحيد. إن العقل العلمي الذي يؤمن به "فيرابند" هو ذلك العقل المتفتح الذي يعترف بوجود اللامعقول وما يتضمنه من مظاهر عدم

الانتظام والتناقض، والثغرات المنطقية، والأساطير والخيال ... فكل إبداع، وكل ابتكار، يتضمن قسطا مما يتجاوز العقل، والعقلنة تستطيع فعلا أن تفهمه بعد الاطلاع، لا قبله . فالعقل المتفتح قابل لأن يناقش ويتفاعل مع أي شيء، وكل شيء قد يكون من شأنه أن يسهم في تقدم العلم، فكل المناهج، وكل الآراء مقبولة.

لقد كانت أراء فيرابند حول المنهج دعوة ضد النمطية وضد وحدة النظر الى الحقيقة من وجهة واحدة وضد سيطرة المنهج الغربي ودعوة الى التفتح والانفتاح على مختلف الثقافات التي تم اقصاؤها باسم الموضوعية والعقلانية والمنهج الواحد.

المراجع

- بول فيرابند ، العلم في المجتمع الحر،تر: السيد نفادي ، المشروع القومي للترجمة العدد 223، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ط1، 2000 .

- عادل عوض.الابستومولوجيا بين النسبية فيرابند وموضوعية شالمرز،دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر .الإسكندرية ط1،2004.

- احمد أنور، ضد المنهج إطلالة على أزمة العقلانية الغربية المعاصرة "سلسلة الفلسفة والعلم " العدد 1، الهيئة العامة لقصور الثقافة القاهرة، 1996.

- غاستون باشلار: الفكر العلمي الجديد ، ترجمة عادل العوا، تقديم جيلالي اليابس، موفم للنشر، الجزائر، 1994.

- ادغار موران، من أجل عقل متفتح ، نقلا عن : محمد سبيلا وعبد السلام بنعبد العالي :العقلانية العلمية وانتقاداتها ، دار توبقال الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2006 .

- بوصالحيح حمدان، إشكالية العلم بين الموضوعية والايديولوجيا في فلسفة "بول فيرابند"، مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية، المجلد 1 ،العدد 1 ،2013 ،جامعة زيان عاشور، الجلفة، الجزائر.

- حياة مشاط، الظاهرة العلمية عند بول فايراباند ، مجلة الأكاديمية للدراسات الاجتماعية و الإنسانية، مجلد 13 ،عدد 01 ،جامعة حسيبة بوعلي بالشلف، الجزائر، 2021.